المحاضرة الثامنة: قضية اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة بن جعفر

قضية اللفظ والمعنى من القضايا التي شغلت النقاد العرب القدامى، حيث تناولوها بالدراسة، واتجهوا فيها اتجاهات متباينة، وانقسموا فيها إلى ثلاثة أقسام: فالأول انتصر للفظ على حساب المعنى، والثاني انتصر للمعنى على حساب اللفظ، والقسم الثالث يساوي مابين اللفظ والمعنى.

وسنحاول في هذه المحاضرة أن نستعرض رأي ثلاثة نقاد في هذه القضية وهم ابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة ابن جعفر.

أولا: ابن قتيبة (ت 276 هـ)

لقد نظر ابن قتيبة إلى الشعر وقسمه حسب اللفظ والمعنى إلى أربعة أقسام.

يقول: " تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب:

- ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول أوس بن حجر:

أيّتها النفسُ أجملِي جزعاَ إنّ الذِي تحذرينَ قد وقَعا

وكقول أبي ذؤيب:

والنفس راغبةٌ إذا رغَّبتها وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنَعُ

-وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، كقول القائل:

ولما قضينـا من منى كل حاجـةٍ ومسَّحَ بالأركانِ من هو ماسـحُ

وشدت على حدب المهاري رحالنا ولا ينظرُ الغادي الذي هو رائحُ

أخذنــا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا وسارت بأعناق المَطيِ الأباطحُ

ويعلق ابن قتيبة على هذه الأبيات بقوله:" هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من معنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا الحديث وسارت المطي في الأبطح، وهذا الصنف في الشعر كثير.

- وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، كقول لبيد ابن ربيعة:

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والمرءُ يصلحه الجليسُ الصَّالح

هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق.

- وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى:

ولقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاوٍ مِشلٍّ شَلولٍ شَلشلٍ شَوِلُ

فهذه الألفاظ الأربعة في معنى واحد، وقد كان يستغني بأحدها عن جميعها، وماذا يزيد هذا البيت أن كان للأعشى، أو ينقص.

من خلال هذه الأقسام يمكن القول:" إن الشعر عند ابن قتيبة لفظ ومعنى وكلاهما يجيء حسنا حينا ورديئا حينا أخر".

وهذا هو مقياس الجودة والرداءة عنده.

كما أن ابن قتيبة يمثل الفئة التي تنتصر للمعنى، وعليه فالمعاني أشرف من الألفاظ ، ولو جردت الألفاظ من دلالاتها على المعاني، لما كان شيء معها أحق بالتقديم من شيء.

ويرى الدكتور إحسان عباس أن ابن قتيبة يستمد حكمه من بيت واحد أو بيتين أو ثلاثة في الأكثر وهذا ما لا ينطبق على الشعر كله.

ثانيا:ابن طباطبا العلوي(ت322 ه)

لقد كان ابن طباطبا في نظرته إلى ثنائية اللفظ والمعنى متأثرا بابن قتيبة، فهو يعد صحة المعنى وعذوبة اللفظ مع صحة الوزن، عيار الشعر المحكم، ولكن ابن طباطبا لم يلتزم بالقيمة المنطقية التي التزم بها ابن قتيبة، ويرى:" أن هناك أشعار باردة المعنى، أبرزت في أحسن معرض وأبهى كسوة وأرق نسيج. فابن طباطبا يقف من الشعر موقفا ذوقيا لا موقفا منطقيا".

هذا وقد جعل ابن طباطبا علاقة اللفظ بالمعنى كعلاقة الجسد بالروح وذالك في قوله: " والكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه، كما قال بعض الحكماء:للكلام جسد وروح،فجسده النطق وروحه معناه ".

ويرى الدكتور إحسان عباس أن هذا التصور الذي أخذه ابن طباطبا من بعض الحكماء يجعل الصلة بين اللفظ والمعنى أوضح مما رسمه ابن قتيبة، على أنه ربما لم يقتصر في العلاقة بينهما على الوجوه الأربعة التي عدها ابن قتيبة.

ثالثا: قدامة بن جعفر(ت 337 ه)

تناول قدامة ابن جعفر قضية اللفظ والمعنى، وقد رأى في اللفظ أن يكون سمحا، سهل مخارج الحروف، خال من البشاعة ، فصيحا.

أما عيوب اللفظ " أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الإعراب واللغة، وان يرتكب الشاعر فيه ما ليس يستعمل ولا يتكلم به إلا شاذا وذلك هو الحوشي الذي مدح عمر ابن الخطاب زهيرا بمجانبته له وتنكبه إياه فقال: كان لا يتتبع حوشي الكلام ".

كما تكلم عن المعاني وذكر نعوتها وعيوبها، ورأى أن يكون المعنى مواجها للغرض المقصود، غير عادل عن الأمر المطلوب، وقد ذكر الأغراض المقصودة وهي المديح والهجاء، والنسيب والمراثي، والوصف والتشبيه.

كما تكلم عن ائتلاف اللفظ مع المعنى وأنواعه وهي:

- **المساواة:** وهو أن يكون اللفظ مساويا للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه.
- **الإشارة:** وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدل عليها كما قال بعضهم في وصف البلاغة فقال " هي لمحة دالة ".
- **الإرداف:** وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذالك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع بمنزلة قول امرئ القيس:

وقدْ أغتدى والطيرُ في وُكُناتِها بِمُنجَرِدٍ قيد الأوابِد هيكلِ

فإنما أراد أن يصف هذا الفرس بالسرعة وأنه جواد فلم يتكلم باللفظ بعينه ولكن بإردافه ولواحقه التابعة له، وذالك أن سرعة إحضار الفرس يتبعها أن تكون الأوابد وهي الوحوش كالمقيدة له إذا نحا في طلبها.

- **التمثيل:** وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى المعنى، فيضع كلاما يدل على معنى آخر وذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير إليه، كقول بعض الأعراب:

فتًى صَدمَتْه الكأسُ حتى كأَنما به فالجٌ من دائها فهو يرعش

والكأس لا تصدم، ولكنه أشار بهذا التمثيل إشارة حسنة إلى سكره.